الدَّبُّ عن السُّفهاء باب من السَّفَه

محمد العمري

www.medelomari.net

إذا رأيت الحليمَ يدِبُّ عن السفيه فشُكَّ في سلامة عقله، أو اتهمْ طَويتَه!

الحِلم كلمة مركبةُ الدلالة، صعبةُ الترجمة؛ يمكن الاقترابُ منها بمقارنتها بالكلمة المقابلة لها وهي الجهل. الحِلم يعني العقل، أي القدرةَ على الفهم والتمييز، ويعني أيضا التسامحَ والاحتمالَ. والجهل نقيض ذلك، أي العجزُ عن التمييز والاندفاع العنيف الأهوج. أما السفه فهو عرَضٌ من أعراض الجهل. ولذلك يُقابَل، هو الآخر بالحلم، كما سنرى في كلام للقائد الخطيب الأموي زياد ابن أبيه.

في المقابلة بين الحلم والجهل قال الشاعر:

أحلامُنا تَزِن الجبالَ رزانةً وتخالُنا جِنًّا إذا ما نجهلُ

فالحِلم ثَباتٌ ورَزانة وتدبُّر، والجهل خِفَّة ونَزَق وجُنون. ومن لا يبتعد عن الجهل، بهذا المعنى، لا بد من أن يُصيب أو يُصاب بما يسوؤه، قال الشاعر:

إذا أنتم لم تُعرض عن الجهل والخنى

أصبتَ حليما أو أصابَك جاهلُ

وقد قيل أيضا:

ما يفعلُ الأعداءُ بجاهلٍ ما يفعلُ الجاهلُ بنفسه

وفي المقابلة بين الحِلم والسَّفَه قال زيادُ ابنُ أبيه لأهل البصرة حين وَلِيَها سنة 45 للهجرة، وهي في فوضىً أمنيةٍ وأخلاقية عارمة: " ما أنتم بالحُلماء، وقد اتبعتُم السفهاء". أي سِرتم في طريق الجهل والنزق وتركتُم طريقَ العقل والسَّماحة.

فكيف، يا تُرى، يحدث أن يترك الحُلماءُ طريقَهم السويَ ويسيرون في طريق السفهاء الجهلاء؟ هذا سؤال كبير عريض!

يشرح زياد بن أبيه مظاهرَ وقوع الحلماء في حِبال السفهاء، ويُبرز دواعيَه وأسبابَه في كلام في منتهى البلاغة:

"ألم تكن منكم نُهاةٌ تمنعُ الغُواةَ عن دَلجِ الليل وغارة النهار؟ ***قَرَّبتم القرابة وباعدتم الدين***، تعتذرون بغير العذر، وتعطفون على المختِلس، ***كل امرئ منكم يذب عن سفيهه***، صنيعَ من لا يرجو عاقبة، ولا يخشى معادا! ما أنتم بالحلماء، وقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام".

حين تصبح القرابةُ الدمويةُ، والانتماءُ الجهوي مُقدَّمين على القيم الإنسانية الرفيعة التي شَرعتها المقاصدُ العليا للديانات السماوية وأقرتها العهود الدولية، ومُقدمين، أيضا، على الولاء للوطن الذي حُبُّه من الإيمان، حينئذ، وحينئذ فقط يمكن أن يتعاطف "حليمٌ مَا" مع من تبولَ على جُثة هامدة، ومع من ذَبح حارسَ أمْن أعزلَ، ثم يتجرأ ويمزق قناع الحياء فيطلب العفو لذلك السفيه المجرم؛ دون أن يرى ضرورة لا للترحم على القتيل الشهيد في سبيل وحدة الوطن وأمنه، ولا لتعزية أسرته الكبيرة أو الصغيرة.

كانت القبائل العربية تنبذ السفهاء، وتخلع عنهم غطاء ولائها، وتطردهم من حماها فيصبح دمهم هدرا. وكانت في مقابل ذلك، تُسَيِّد من بَلَغ من أبنائها درجة الحِلْم والتعقل، أي المعرفة وحسن التدبير، تُسيده ليقود بها سفينة الحياة نحو بَر الأمان، فيسمونه سيدا، أوشيخاً، بقطع النظر عن سنه وعمره. الشيخ رمز الحلم، والسفيه رمز الجهل، لا يلتقيان على مائدة، ولا يأكلان نفس الأكل إلا أن يكون أكلا مشبوها.

عندما سمعتُ من يقول عن مجرمي مجزرة العيون: ألئك "أبناؤنا"، تذكرت ما أورده المفسرون ضمن أسباب نزول قوله تعالى: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم".

فقد رُوي أن النبي، صلوات الله وسلامه عليه، لما أتى مكة أتى رضما من حجارة أو رسما أو قبرا ، فجلس إليه حتى

اشتدت عليه الشمس مستأذنا الله في الاستغفار لأمه، فلما نزل قوله تعالى: "ما كان للنبيئ..." انصرف باكيا، فما رُئي باكيا أكثر من ذلك اليوم.

إن هناك حقوقا "للحق" وللناس لا ينفع فيها الاستغفار، ولا طلب العفو. فليبتعد الحلماء عن طريق السفهاء.